تدبر السنن الإلهية
عند السلف الصالح

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م
بطاقة الفهرسة

كهوس ، أبو اليسر رشيد
تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح /
د. أبو اليسر رشيد كهوس
ط ١ . - المنصورة
دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥ م
٦٤ ص ، ٢٤سم .
رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٣٨٩٦
تدمك : ٤-٤٩٥-٣١١-٩٧٧-٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع
دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة
القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema-pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

منشورات مجموعة البحث في السنن الإلهية
في القرآن والسنة والتاريخ (١)

تدبر السنن الإلهية
عند السلف الصالح

تأليف
الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس

دار الكلمة
للنشر والتوزيع

إهداء
إلى أهل القرآن
في كل مكان
وعبر العصور والأزمان

من هدي القرآن

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

قالوا في التدبر..

قال الإمام الآجري (ت٣٦٠هـ) رحمه الله: «ومن تدبَّر كلامه عرف الربَّ عزَّ وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته فألزم نفسه الواجب ، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة ، والله الموفق» [أخلاق أهل القرآن (٣٦-٣٧)].

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي فطر العالم بقدرته، وأبدع الحكم بإرادته وحكمته، وأوجب على العباد معرفة أوصافه وأحكامه وسننه، وألزمهم امتثال أمره ونهيه وتدبر كتابه والتفكر في آياته، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد أرسله بباهر آياته ومعجزاته، واصطفاه من بريته، وجعله حجة على خلقه، وعلى عترته أهل بيته وصحبه الذين فازوا بصحبته.

أما بعد؛

فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

إن تدبر السنن الإلهية في القرآن الكريم غاية في الأهمية، له أثر كبير في حياة الفرد والأمة، وله دور عظيم في تجلية معالم الماضي والحاضر والمستقبل.

ويعتبر تدبر السنن الإلهية منارًا هاديًا لتسخير الكون بكل ما فيه من أجل فهم أشمل وأكمل للحياة، وامتلاك السبل الموصلة إلى استشراف مستقبل زاهر من خلال تلك السنن الثابتة المطردة الربانية التي تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس المسلمين، ومن أجل إخراج المسلم من العبثية وجعله أكثر إيجابية وأكثر عطاء، وأكثر تأهلًا للاستخلاف في الأرض وعمارتها.

وتكمن الأهمية الكبرى للتدبر السنني في عناية السلف الصالح به، وحثهم وحضهم الأمة عليه؛ لأنه سبب عزتها، ومصدر وحدتها، والسبيل الموصل إلى تحقيق المجتمع العمراني الإسلامي كما كان في عهد التنزيل والخلافة الراشدة..

أضف إلى ذلك أن تدبر السنن الإلهية في القرآن الكريم وفقهها والسير على منهاجها يجعلنا ندرك أن موضوعها هو الإنسان وما عليه مدار نجاحه وخسرانه ودعوته إلى المنهاج السليم والمهيع اللاحب والطريق المستقيم والأخذ بيده إلى هذا الطريق ليستقيم عليه كما أمر، فقد وصف الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بأنه يهدي للتي هي أقوم وأنه هدى ورحمة للمؤمنين، وتتجلى هذه الهداية بجلاء في هذه السنن الربانية والنواميس الإلهية والقوانين الثابتة، كما تتجلى في:

١- إعلام الإنسان بأن الله تعالى قد جعله خليفة في الأرض وسخرها له، وأقدره على استعمارها ومعرفة قوانينها لتسخيرها، قيامًا بأمر الخلافة.

٢- وضع بين يديه سننا ثابتة وقوانين ربانية -تهدي الإنسان للتي هي أقوم- لبناء منهاج متكامل للحياة، وأرشده إلى تدبرها وفقهها والعلم بها والوقوف عندها والكشف عن منهاج عملها والعمل على توظيفها في واقعه ومن ثم تسخيرها بحسب ما يتطلبه هذا الواقع...

لكن رغم ما لتدبر السنن الإلهية والكشف عنها من أهمية عظيمة وأثر كبير في حياة الأفراد والأمة وواقعها إلا أنه لم يحظ بعد بمكانته المرموقة في فكر المسلمين ووعيهم، ولهذا كان الشيخ محمد عبده -رحمه الله- يرجو أن يكون هناك علم مستقل للسنن الإلهية وأن يتدبر المسلمون القرآن الكريم تدبرًا سننيًا ليستخرجوا منه علم السنن كما استخرجوا العلوم الشرعية الأخرى.

سبب اختيار الموضوع:

إن ما حل بالأمة المسلمة اليوم وعبر العصور من خطوب وما تعرضت له من انكسار لم يكن محض صدفة ولا من قبيل العبثية، وإنما جزاء وفاقًا لمخالفتها للسنن الإلهية وعدم الأخذ بها، وعدم تدبرها ومن ثم تسخيرها والعمل بها..

فلقد أعطى المسلمون كل اهتمامهم لحفظ القرآن وتلاوته، لكنها تلاوة من غير تدبر، لا تجعلهم يقفون عند سنن الله تعالى ونواميسه للاستفادة منها كما أمر الله سبحانه وتعالى، مما أضعفَ أثرَ القرآن الكريم في بناء الشخصية المسلمة لديهم، وشوهت الفطرة التي فطر الله

الناس عليها، ودعت طائفة من الناس فصل الدين عن الدولة والمجتمع، في حين دعا آخرون إلى السفور والفجور، فيما نجد في زاوية أخرى طائفة من الناس ينتظرون نصرًا خارقًا للعادة دون الأخذ بسننه. وما ذلك إلا لأنّهم قرأوا القرآن بقصد القراءة فقط، لا بقصد التدبّر لسننه وقوانينه. لذا؛ جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ **(تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح)؛** لتلقي الضوء على أهمية تدبّر السنن الإلهية في القرآن الكريم وبيان أثره في حياة الأمة، وذكر نماذج من تدبر السلف الصالح من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وعلماء الأمة وأئمتها للسنن الإلهية فحققوا نصرًا وفتحوا البلاد وقادوا العباد.

إشكاليّة الدراسة:

يمكن صياغة إشكالية الدراسة بالأسئلة الآتية:

١- ما المقصود بالتدبر؟ وما المقصود بالسنن الإلهية؟

٢- ما هي آثار تدبر السنن الإلهية في حياة الأمة؟ وما دوره في التغيير وتحقيق سنن الاستخلاف؟

٣- كيف تعامل السلف الصالح مع تدبر السنن الإلهية؟ وكيف قاموا بتسخيرها لتحقيق الخلافة في الأرض؟

أهداف الدراسة:

تتلخص الأهداف المرجوة من هذا البحث بما يأتي:

أولا: بيان مفهوم التدبر السنني وآثاره في حياة الفرد والأمة.

ثانيا: الحث على التدبر السنني لكونه المخرج من الكثير من المشكلات التي تعيشها الأمة المسلمة اليوم.

ثالثا: ذكر نماذج من التدبر السنني عند السلف الصالح بغرض التأسي والاقتداء.

منهج البحث:

للوصول إلى أهداف البحث المرجوة سلكت المناهج العلمية الآتية:

- المنهج الوصفي: الذي يصف عوامل ضعف الأمة المسلمة لما تنكبت عن التدبر السنني للقرآن الكريم.

- والمنهج التحليلي الاستنباطي: الذي يقوم على تحليل النصوص تحليلًا نوعيًا؛ بهدف استخراج واستنباط مضامين تربوية مدعمة بأدلة واضحة.

عناصر الدراسة:

جعلت هذا الكتاب في مبحثين:

أولهما: للحديث عن معنى التدبر السنني وأهميته وفوائده وآثاره.

وآخرهما: للحديث عن التدبر السنني عن السلف الصالح من الصحابة وعلماء المسلمين وأئمتهم من بعدهم.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد والرشاد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه

أبو اليسر رشيد بن محمد كهوس

بالمغرب الأقصى

١٠ جمادى الآخر ١٤٣٤هـ.

المبحث الأول
تدبر السنن الإلهية: ماهيته وأهميته وآثاره

المطلب الأول
تدبر السنن الإلهية وأهميته

١- معنى التدبّر لغةً واصطلاحًا:

التدبّر: «هو النظر في آخر الأمر، ودُبرَ كل شيء: آخره»(١). «والدُّبُر مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: عَقبُه ومُؤَخَّرُه، والتَّدَبُّر التَّفكُّر»(٢). «والتدبّر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أنّ التفكرَ تصرفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبّر تصرفه بالنظر في العواقب»(٣).

إذن فتعني كلمة التدبر في اللغة: آخر الشيء وعقبه، التفكر، التأمل والنظر في أدبار الأمور وعواقبها.

أما التدبّر اصطلاحًا: فهو مستمدّ من المعاني اللغويّة للكلمة، فيستعمل التدبّر في الدلالة على التفكّر والتأمل في مبادئ الأمور وعلائقها وما ستئول إليه. فـ«أصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كلّ تأملٍ سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أم لواحقه وأعقابه»(٤).

ويعرفه علامة تونس الشيخ الطاهر بن عاشور بقوله –التدبر–: «التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني»(٥).

---

(١) جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، ٢١/ ١٩٠.

(٢) تاج العروس، الزبيدي، محمد مرتضى، مادة: دبر.

(٣) التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد، ص ١١٧.

(٤) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ٨٩.

(٥) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٢٣/ ١٤٨.

وعرفه العلامة عبد الرحمن الميداني بقوله: «التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»(١).

خلاصة التعريف الاصطلاحي: التدبر هو: «التفكّر العميق والتأمل الشامل في آيات القرآن الكريم، بقصد الوقوف على معانيها وفهمها والاعتبار بها والعمل بمقتضاها».

٢- معنى السنن الإلهية:

يعرف الشيخ محمد جابري السنن الإلهية بأنها: «جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود. وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»(٢).

ويعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان بقوله: «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»(٣).

ويعرفها محمد إسماعيل إبراهيم بقوله: «وسنة الله: شريعته وطريقته، وما جرى به من نظامه في خلقه»(٤).

ويعرفها العلامة يوسف القرضاوي بقوله: «السنن الإلهية هي: القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع»(٥).

ويقول المفكر الإسلامي الشيخ جودت سعيد في تعريفه لسنة الله: «السنة قانون الله»(٦).

ويعرفها أ .د محمد عبد المنعم خفاجي بقوله: «سنة الله هي المنهج الإلهي في تسيير أمور حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم، وهي شرائعه التي يرشد الإنسانية بها إلى الله وإلى الحق»(٧).

---

(١) قواعد التدبّر الأمثل، الميداني، ص ١٠.

(٢) التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، ص٦٦.

(٣) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص١٣.

(٤) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، ص١٥٤.

(٥) العقل والعلم في القرآن الكريم، ص٢٧٩.

(٦) العمل قدرة وإرادة، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، ص٧٣.

(٧) موسوعة ألفاظ القرآن الكريم، ص١٤٢.

خلاصة التعريفات:

السنن الإلهية هي: الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر -بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم-، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة، والقوانين التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته.

وهي توصف بصفة الربانية والعموم والشمول والثبات والتسخير والتوازن والانتظام والنفاذ والصلاحية لكل زمان ومكان.

٣- معنى تدبر السنن الإلهية في القرآن الكريم:

أقصد بتدبر السنن الإلهية الوقوف عند القرآن الكريم والتفكر فيه لاستنباط ما فيه من سنن الله تعالى المطَّردة لتسخيرها والانتفاع بها والسير على منهاجها وعدم تنكُّبها.

وعليه، فالاقتصار على التلاوة والحفظ -له أجره- لكن لا تكفي التلاوة وحدها، ولا الحفظ وحده، دون التدبّر المفضي إلى الفهم والعمل؛ قال سيدنا الحسن البصريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدَهم ليقول: قرأتُ القرآن كلّه ما يُرى له القرآنُ في خُلقٍ ولا عمل»[١]. وقد حذّر سيدنا رسول الله ﷺ من الوقوف عند حفظ القرآن الكريم فقط تدبر آياته، فذمّ من يفعلون ذلك بقوله ﷺ: **«يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَمِيَّة»**[٢].

والاكتفاء بالتلاوة والحفظ دون التدبّر؛ مخالفٌ لمنهاج السلف الصالح في التعامل مع القرآن الكريم، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمّة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإنّ آخر هذه الأمّة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به. وفي هذا المعنى قال

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٦٤.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب: في صفة المارقة، حديث رقم: ٢١٨٨.

ابن مسعود: «إنّا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإنّ مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به»(١).

فتدبر القرآن الكريم وقراءته قراءة تدبرية هي القراءة المنتجة للفهم والاعتبار والعمل، وهي المنهاج الذي سار عليه رسول الله ﷺ في تعليمه القرآنَ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ذكر أبو عمرو الداني بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: **«أنّ رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعًا»**(٢). وقال محمد بن كعب القُرظي: «لأن أقرأ: (إذا زلزلت الأرض زلزالها، والقارعة) ليلةً أردِّدُهُما وأتفكر فيهما؛ أحبُّ إليَّ من أن أبيت أهُذُّ القرآنَ»(٣).

ولهذا حض سلفنا الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على تدبر القرآن الكريم والوقوف عند آياته للانتفاع بها والامتثال لها بما يعود على المرء بالخير والصلاح في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة: فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : «لا تهذوا(٤)القرآن كهذ الشعر ولا تنثروه نثر(٥) الدقل(٦) وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب»[شعب الإيمان للبيهقي].

وإن المتقدمين أعطوا كل اهتماماتهم لفقه الأحكام وقواعد الاستدلال والحجاج في الأصول والفروع، يعني أعطوا كل جهدهم لخدمة أكثر من خمسمائة (٥٠٠) آية (آيات الأحكام)، لكن أين الاهتمام بقرابة خمسة آلاف وسبعمائة وستة وثلاثين (٥٧٣٦) آية، إذا علمنا أن مجموع آي القرآن الكريم (٦٢٣٦)، أين الإلمام بذلك العدد الهائل من الآيات القرآنية التي تتحدث عن السنن الإلهية التي لا تحيد ولا تميل ولا تعرف التغيير ولا التبدل،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٤٠.

(٢) البيان في عدّ آي القرآن، أبو عمرو الداني، ص ٣٣.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، باب في قراءة القرآن، حديث رقم: ٨٨٢٤.

(٤) الهذ: سرعة القطع والقراءة.

(٥) النثر: التساقط والتفرق.

(٦) الدقل: الرديء اليابس من التمر، والمراد أن القارئ يرمي بكلمات القرآن من غير تدبر وتأمل كما يتساقط الدقل من العذق إذا هُزَّ.

أين الاهتمام بالقصص القرآني والأمثال والعظات التي جاءت لتبين للناس سنن الهدى والرشاد ليلزموا غرزها وليحذروا تنكبها..

لكن الأمة غفلت عن جل آيات القرآن التي اهتمت بالسنن الإلهية، هذا إذا أدركنا أن مجرد القصص القرآني شمل زهاء ثلث القرآن مما يبين لنا المدى الشاسع الذي أهملناه من فقه السنن، وحصرنا أنفسنا في هذا الجزء اليسير من آيات القرآن الكريم، في الوقت الذي يدرك فيه الجميع أن القرآن الكريم لم يترك مسألة من مسائل الحياة والخلافة في الأرض وإعمارها إلا وتحدث عنها.

إن آيات القرآن الكريم تفيض بالسنن التي أمر الله عباده أن يأخذوا بها في الحياة الدنيا؛ وهي في أكثر من موضع تحض المسلمين وتحثهم على الأخذ بسنن الله تعالى؛ فبينت لهم سنن ولادة الأمم والدول واستمرارها نحو النضج والرقي، كما بينت لهم سنن الهلاك والاندثار بعد القوة والازدهار، وذكرتهم بنماذج من مصير الأمم الغابرة التي تنكبت تلك السنن فتم إهلاكها واستئصالها، كما بينت لهم مصير الأمم التي ستأتي من بعد وهي خاضعة كذلك لتلك السنن المطردة.

ولكن قليلون من يتدبرون كتاب الله تعالى ليستنبطوا تلك السنن التي إن سارت على نورها الأمم والجماعات اشتد ساعدها وترسَّخ وجودها، وإن تخلَّت عنها أصابها الضعف والذبول والانمحاق كما هو حال الأمة اليوم.

فيتحصل من كل ما سبق أنه واجب على المسلمين أن يتدبروا القرآن الكريم تدبرًا سننيًا ليأخذوا بفقهها ويعتبروا بدروسها، ويتبصروا بأنوارها،يقول محمد عبده -رحمه الله-: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم، لنستلهم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملًا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة،

وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها»[١]، فما سقطت الأمم من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة[٢]، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبُّر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا، فأخذهم الله بذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين [٣].

وبناء على هذا فإن تدبر القرآن الكريم لتعرف السنن التي تحكم كل مجالات الحياة لالتزام غرزها وعدم الخروج عن سكتها، هو عين التوكل والإيمان، وحقيقة التكليف. «وهي مظهر من مظاهر العدل الإلهي المطلق؛ حيث لا يصح غير ذلك على الله سبحانه وتعالى -فكيف يصح عدلا أن يعط من لا يعمل ويحرم من يعمل؟! وكيف يمكن للإنسان أن يستجيب لأمر دون معالم هادية، وأسباب موصلة إلى النتائج؟! ولذلك ينبغي أن نعلم علم اليقين أن هذا الكون محكوم بسنن ثابتة مطردة؛ لا يمكن تسخيره والإفادة منه إلا وفق هذه السنن، والناس والأمم والدول في سائر تصرفاتها لا يخرجون من سلطانها»[٤].

وهذه السنن الإلهية ليست عشوائية، وإنّما هي قوانين ثابتة، لا تتخلف في الحالات الاعتيادية، بل إنّ التأكيد على طابع الاطراد في السُّنّة هو تأكيد على الطابع العلمي للقانون الاجتماعي، لأنّ أهم ما يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف [٥].

---

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، ٥/٩٥. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤/.١١٤،١١٥.

(٢) العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ص١٧١. بتصرف.

(٣) دروس من القرآن الكريم، محمد عبده، ص١٩٠.

(٤) (المسلمون وفقه السنن..)، مقال لمحمد أمحزون، المنشور بمجلة المنار الجديد، السنة السادسة شعبان ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، العدد٢٤، القاهرة، [٢٦-٣٣]، ص٢٧-٢٨.

(٥) انظر: السنن التاريخيّة في القرآن الكريم، محمد باقر الصدر، ص ٦٧.

لهذا ينبغي تدبر القرآن الكريم لمعرفة هذه السنن الإلهية، لتوظيفها لبناء المجتمع وتربيته وتزكيته، فمن خلال السنن نعي عوامل البقاء التي تحفظ المجتمع من الانحلال. على أنّ هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي والطاعة والمعصية والإيمان والكفر، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود الله؛ أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وارتكب النهي وقع في حدود الله[١].

ومن خلال السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم والسير وفق مقتضياتها تحفظ الأمة كيانها من معاول الهدم، وتقي نفسها من السقوط والانهيار.

وتتبين أهمية التدبر السنني للقرآن الكريم من خلال عناية علماء الإسلام به، وقد عده حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد الغزالي-رحمه الله- من القسم المحمود فقال: «وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصورٌ عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يتيسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب»[٢].

يقول الشهيد سيد قطب-رحمه الله- في بيان أهمية التدبر السنني للكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون): «إن هنالك سننًا ثابتة لهذا الكون؛ يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها»[٣].

---

(١) كيف نفسر التاريخ، محمد السلمي، ص ٤٥.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، ١/٦١-٦٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الثاني، م٢، ص١١١٩.

وعلاوة على ذلك فإن من الواجب علينا أن نقرأ سنة الله قراءة ذكية، لا نتبلد مع التقليد؛ ونتدبر تسلسلها التاريخي التكليفي وجريان قَدَرها على كل شيء في هذا الوجود.

والدعوة القرآنية إلى التدبر السنني للقرآن الكريم الهدف منها استخلاص الدروس والعبر التي تستفيد منها الأمة المسلمة وتسترشد بها، لتصحح مسارها العمراني البشري على النحو الذي يحقق لها العيشة الهنية في طمأنينة وسلام، وأمن واستقرار، أي تنطلق من القرآن إلى العمران.

فالسنن الإلهية نور يُهتدى بها في دياجير الظلام، وما أحوج الأمة إليها وهي تعيش في أحلك الفترات التاريخية، اغتُصبت أراضيها، واحتلت ديارها، ودخل عليها العدو في عقر دارها، فهي في أمس الحاجة -بل واجب عليها- إلى هذا الأنموذج من تدبر القرآن الذي ينير لها دروب الحياة كما أناره للسلف الصالح من الرعيل الأول.

ومن هنا فإن الإدراك العميق بأن كل شيء في هذا الوجود يسير وفق السنن الإلهية التي لا تنخرم ولا تحيد، وتوظيف هذا الإدراك إلى واقع العمل حينئذ سيكون الإنسان قادرًا أن يسير على المنهاج الصحيح بالتدبر السنني للقرآن الكريم مسترشدًا به، معتبرًا بمن سبقه من الأولين، مستفيدًا من كل آليات الحياة ومسخرًا لها لتحقيق بناء الذات، والحفاظ على الكيان لتحقيق الشهود العمراني.

لأن التدبر السنني للقرآن الكريم يجنب صاحبه الاعتقاد الخاطئ والمخطئ بأن الكون والحياة تحكمهما المصادفة والفوضى والعبثية، بل توقفه على ما أودعه الله فيهما من سنن تجعل سيره على بصيرة، وعمله على هدى، فيحقق الوقاية من السقوط في مهاوي الهلاك والخيبة والخسران.

ولا تقتصر أهمية التدبر السنني على ما يترتب عليه من الجزاء في الدنيا، بل إنه يرجع كذلك إلى ما يترتب عليه من الجزاء في الآخرة.

وعليه، فإن تدبر سنن القرآن ومعرفتها والانتفاع بها أكثر أهمية بالنسبة للأمة الإسلامية في هذا العصر أكثر من أي عصر مضى، ذلك أنها لم تصل إلى ما وصلت إليه من تفرق وتشرذم

وطائفية وتناحر، وتكالب الأعداء عليها حتى فقدت السيطرة على مقاديرها، إلا يوم أَن أَهملت التدبر السنني للقرآن الكريم، ولم تأخذ بسننه، ولم تنتفع بها لتحقيق الترقي الاستخلافي في الحياة؛ بما يعنيه من تحقيق لأقصى درجات الفعالية في الترقي الروحي والمعرفي والنفسي والاجتماعي والسلوكي والعمراني المتناغم مع سنن الله ونواميسه في الوجود. وعليه فلا تقدم ولا ترقي ولا نصر ولا تمكين، حتى تأخذ الأمة بالسنن الإلهية في الكون والحياة، وتسير على منهاجها.

وهكذا نجد أن تدبر سنن القرآن والسير على نهجها يجعل الأمة تمشي سويًا على صراط مستقيم، والأمر ليس بالسهولة المفرطة ولا بالتعقيد المعجز، وإنه ليسير على من يسره الله عليه وفتح بصيرته وأمده بمدد من عنده ووفقه للتدبر السنني في كتابه المنزل على خير رسله ﷺ.

ولذلك فإن الغفلة عن التدبر السنني للقرآن تجعل الإنسان يفقد ميزاته الأساسية، وأمانته التي حمله الله إياها، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له، لتسخير ما خلق الله له. ويصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين، بل يصير نفسه مسخرًا للذين يعلمون سنن الله»[1].

ولا يفوتني القول أن من أهم دواعي الاهتمام بالتدبر السنني للقرآن الكريم للوقوف على السنن الاجتماعية المبثوثة فيه هي الوظيفة التي تضطلع بها هذه السنن في علاقتها بالعلوم الإنسانية عامة وبعلم الاجتماع خاصة؛ فمن شأنها أن تشكل مصدرًا مهمًا لهذه العلوم نعيد على ضوئه النظر في الكثير من نتائجها وخلاصاتها، ونمدها من ثم بنتائج وخلاصات يقينية أشبه من حيث الدقة بمعادلات رياضية وفيزيائية، فتتضاءل الأخطاء نتيجة لذلك، وتتقلص ويصير من الممكن تجنبها وتفاديها.

أضف إليه، أن الظاهرة الإنسانية هي أشد ظواهر الكون تعقيدًا لأنها ذات بعدين روحي ومادي. فالبحث العلمي وإن تمكن من تحقيق إنجازات مذهلة فيما يتصل بالعالم المادي الذي

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص٢٢٥.

يمكن أن نعتمد فيه إلى حد كبير على معطيات الحس، والذي تتفاعل فيه الأسباب والنتائج ثم ينتهي الأمر في هذه الحياة.

كما هو الحال عند الكثير من المدارس ومؤسسيها؛ فمنهم من يمثل الأحداث التاريخية نهرًا جاريًا بالحضارات يصب في بحر العدم، ومنهم من يتناول وظيفة الإنسان بصفته المحرك الأساس لعوامل الصراع في هذا الكون بغض الطرف عن أي مؤثر كان، ومنهم من يلغي دور الإنسان وفاعليته ويجعله عبدًا ذليلًا للحتميات..

أو كما هو الحال عند أصحاب الفيزياء الكمية أصحاب نظرية الفوضى "chaos theory" الذين تاهوا في كهوف الضلال وزاغوا عن هدي السنن الكونية وحادوا عن الطريق المستقيم، تلك النظرية الفيزيائية التي تعتبر ذلك التنسيق الدقيق والانضباط التام والدقة المحكمة في الطبيعة **(فوضى)**[1] ولم تجد غير هذا الاسم.

لكن هذه العلوم الإنسانية ظلت عاجزة أمام الظاهرة الإنسانية التي تتكون من مادة وروح ويتحد فيها عالم الغيب بعالم الشهادة.

وبإجمال؛ فإن من اتخذ سنن الله مطية في بدايته أشرقت نهايته، وبوركت مسيرته، وثبتت أركان دولته ثبات الكلمة الطيبة التي مثلها القرآن الكريم بشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها[2].

ومن نأى عنها، وضل عن سبيلها استدرجه قدر الله من حيث لم يحتسب، وجاءه حتفه من حيث لا يشعر.

---

(١) ها هو علم الفيزياء الكمي يقف عند النقطة التي فقد فيها "موريس دي فرجي" الحبل الرابط بين العوامل المؤثرة في سير حركة التاريخ؛ فلتتعانق علوم الأرض المنقطعة عن الأمر الرباني، ولتعلن عجزها في مواصلة السير، ولتبرأ إلى الله من حولها وقوتها لتدرك أن عقيدة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] لهي الحل النهائي لإدراك الترابط بين كل سنة وأخرى من سنن الله في الكون.

(٢) السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، ص١٤٠.

وصدق ربنا تبارك وتعالى القائل في كتابه العزيز: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

٤- الحث على تدبر السنن الإلهية في القرآن الكريم:

إن النص القرآني لم يأخذ حقه بعد من التدبر السنني باعتباره كتابًا يوجه حياة الناس وفق سنن إلهية ثابتة ومطردة، يقول الله تبارك وتعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]، فالله تبارك وتعالى يستنكر على المنافقين الذين تراكم الران على قلوبهم عدم تدبرهم القرآن الكريم والوقوف عند سننه وآياته ومواعظه ودروسه وعبره وحججه القاطعة وبراهنه الساطعة، لتزال الغشاوة عن قلوبهم، فيدخل النور إليها، فتستنير بصيرتهم، ثم أتبع هذا التساؤل الاستنكاري جملة من سننه الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٢٥-٣٨].

بدأها بسنته تعالى في الهدى والضلال، وختمها بسنته في استبدال الأقوام.

إذن أعقب سبحانه وتعالى حثه وحضه على تدبر القرآن الكريم بأربعة عشر آية بيَّن فيها سننه الثابتة المطردة في خلقه، مما يتبين لنا دعوته إلى تدبر السنن الإلهية في القرآن الكريم الذي يقي صاحبه نار الجحيم ويجعله من السعداء ومن أهل اليمين في النعيم المقيم.

وملاك الأمر أن الله تبارك وتعالى خصص الكثير من سور القرآن الكريم للحديث عن قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابًا أو سلبًا؛ حين اختارت لنفسها طريقًا معينًا، ولينبهنا كذلك على أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

وهكذا فإن ما وقع للأمم والمجتمعات الماضية «التي تكررت وقائعها رغم اختلاف أشكالها وتباين الظروف الزمنية والمكانية التي وقعت فيها، يسجل القرآن الكريم وجود قانون أو سنة كونية مطردة تحكم سير هذه المجتمعات كما دل على ذلك استنطاق جزئياتها؛ إذ يصرح القرآن أن لله سننًا في الأمم والجماعات، يدعو إلى التفكير فيها والتدبر في مغزاها واكتشاف دلالتها الاجتماعية ولمس معانيها التاريخية.. فالحديث القرآني يكشف على أن هناك حوادث تاريخية متشابهة في دلالتها ومضمونها وإن اختلفت في شكلها، وهذا التماثل هو الذي يضمن لهذه الحوادث نوعًا من التكرار والاطراد، ومن ثم يخبر القرآن الكريم أن هذا الاطراد غير قابل للتبديل والتحويل..

وهذه السنن لها وظيفة اجتماعية مهمة فهي تكشف عن أسباب الخلل وتزيل الستار عن أسباب الدمار وتثير في الإنسان فطرة الخير والصلاح، وتدعوه إلى الاستقامة ومراجعة مواقفه ووقفاته والعمل على ضبط حركاته. ومن جهة تكشف هذه السنن عن تجربة تاريخية كاملة تجد فيها الشعوب والجماعات ما ينير طريقها ويفتح بصيرتها للوقوف على نتائج اختيارها»[1].

(١) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، ص١٨٩-١٩٠. بتصرف يسير.

إن الفهم العميق لسنن الله في الكون يمكننا من دراسة الأحداث دراسة متأنية تنظر للقرآن من زاوية: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق:٣] وتنظر للكون من زاوية: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم:٥٠] .

وهي الرؤية التي تجعلنا نعيش تلك الرابطة القوية والعلاقة المتينة مع الله ؛ فهما لفرائض الوقت ومتطلبات ظرفي الزمان والمكان، بل نتعداها لنلمس عن كثب ترابط الأشياء بمسبباتها حتى نكون على بينة من ربنا، ونجنب أنفسنا أسباب سقوط الحضارات وتقلبات أيامها، ونكون بعلم على بينة من أسباب الهزائم ودروبها، لنرى وبصدق بأننا أمام عالم مجنون يبذر خيرات البلاد، ويبددها عبثًا، ويهدم الحضارات، وينتحر وهو مصر على ذلك، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود.

وإذا تسلحنا بسلاح التدبر السنني والفهم عن الله مقتضيات سننه الكونية والقرآنية وترابطهما الوثيق، لهذه بتلك؛ كنا على بينة وعلم من ربنا وأسعفنا ذلك لدخول باب التاريخ لنزداد يقينا وتصديقا لكتاب ربنا.

ولئن جعل الله لكل شيء في هذا الوجود قدرًا، ولكل شيء حكمة وغاية؛ ولكل شيء أجلًا، وخلق كل شيء بقدر؛ إذ لا عبثية في نظام الله، فيبقى إدراك حكمة الحكيم في كل شيء، ومن هنا ندرك أغوار مضامين الآية: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٢٦ ﴾ [الملك:٢٦].

وقد يسر لنا أمر تدبر القرآن، وطلب منا أن نقرأ الآيات القرآنية من زاوية ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ [العلق:١]..، كما طلب منا النظر إلى الآيات الكونية من زاوية ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٥٠] ..

فرحمة الله لا يمكن إبصارها، ولكن أثارها تبقى بارزة، فالأرض باتت خاشعة قاحلة فأنزل الله عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج.

«ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدثنا عن الماضي في جل مساحاته لكن ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سننًا)، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونزوعنا المستقبليّ.

ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين، كما هو الحال في أي نشاط فني، قبل أن تبرز للعيان الاتجاهات التعليمية الحديثة في ميادين الفنون، إنما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و(تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل»[1]؛ ولتكون نبراسًا يستضاء به، ويقتبس منه صدق المسار أو انحرافه.

والقرآن الكريم كتاب الله تعالى يحثنا على تدبر سننه القرآنية والكونية حثًّا لا مزيد عليه في سبع أوامر مفادها:

١- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:١١].

٢- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٩].

٣- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠].

٤- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:٤٢].

٥- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص٩٧-٩٨.

٦- ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل:٣٦].

٧- ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ:١٨].

ولم يكتف سبحانه وتعالى أن أمرنا بتدبر السنن القرآنية والكونية لندرك عاقبة الأمور؛ بل استنكر علينا قعودنا لنلمس عن كثب ما يزيدنا يقينًا ويعطينا قوة إيمان لا تتزلزل عندما تزيغ قلوب فريق من الناس ويرهبون المخلوقين أشد خشية من الله القوي العزيز، والله أحق أن نخشاه، لنستمع لكتاب ربنا وهو يرتل على مسامعنا آيات بينات -لم نتدبرها التدبر المطلوب- تستحث همنا للسير في الأرض في مهمة تدبر سنني وبحث تاريخي يستكشف سنن الله في كونه ويعيها ويوظفها في مخططاته المستقبلية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:١٠٩].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم:٩].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [غافر:٢١].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر:٨٢].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد:١٠].

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: «إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تُفضي إلى التبيُّن والتبصُّر، والاهتداء إلى السُّنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنساني، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلى عمر الأمة المسلمة وتجربتها؛ لتحقق بذلك الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين»(١).

هكذا رُسم لنا المنهاج، وخُطت لنا الطريق، ووضعت لنا قنواتٌ من شأنها أن تعيد الأمة المستضعفة إلى عزها ومجدها وكرامتها، وتأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة وبر الأمان، إنْ تدبّرنا الكتابين المنظور والمسطور.

فهل تعيها أذن واعية، وتستخلصها أمة راضية مرضية، أم نتمادى في غيِّنا وطغياننا ظنًّا منا بأننا على غير هدى، وأن هذه مجرد أساطير الأولين؟

ولله در الإمام ابن القيم –رحمه الله– القائل:

فتدبَّرِ القرآنَ إنْ رُمتَ فالعلمُ تحتَ تدبرِ الهُدَى القرآنِ(٢)

***

(١) الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، ص٨٥.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص٥٥، بيت رقم: ٧٣٦.

المطلب الثاني
أثر تدبر السنن الإلهية في إحياء الأمة

لقد أصيبت الأمة المسلمة اليوم بذُلٍ وهوان، وتفرقٍ وخذلان، وتكالب الأعداء عليها من كل حدبٍ وصوب، فنهبوا ثرواتها، وسلبوا خيراتها، جزاءً وفاقًا على تنكُّبها عن التدبر السنني للقرآن الكريم، فتقاعست الهمم ونكست الرءوس وتقاعد الناس عن البحث سبل الخلاص، فلا تكاد تجد إلا الأماني المعسولة، وانتظار السنن الخارقة للعادة دون الأخذ بسنن الله الجارية وعدم التعامل معها بشكل صحيح وإغفالها وعدم إدراك كنهها والتقصير المعرفي بها مما أدى إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والازدهار، حتى صاروا غرضًا للغزاة الذين يتربصون بهم الدوائر من كل صوب وأوب.

ولذلك يعتبر الزيغُ عن سكة التدبر السنني للقرآن الكريم، والعدول عن كشف ما تضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة التي تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة وتنأى عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه الهمم إليه مما أورثنا التأخر عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.

وإن عملية الإحياء والتجديد تحتاج إلى التدبر السنني للقرآن الكريم، تدبرًا واعيًا يهدي إلى سبيل الرشاد، يحيي الأمة ويكشف عنها الغمة، ويزيح عنها الظلمة، وعلى ضوئه –التدبر السنني– وفي نوره تبني مجتمعها العمراني الإسلامي وتستنبط منهاجها،كما فعل سلفنا الصالح لما تدبروا القرآن الكريم تدبرًا سننيًّا جعلهم على رباط وثيق بسنن الله وقوانينه. فمنها استمدوا الخِبرة والأسوة، ومنها استقوا الرحمة والحكمة، وبفقهها بنوا مجتمعًا إسلاميًّا صالحًا ومنعوا أنفسهم وأمتهم من السقوط في مستنقع الهلاك، وحفظوها من معاول الهدم.

ولهذا فإن الأمة الموعودة بالظهور والخلافة في الأرض كانت ولا تزال بحاجة إلى التدبر السنني وأخذ العبرة من الأمم الغابرة والأقوام السابقة والحضارات البائدة.

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون –رحمه الله– في سنة الله في الأمم والأفراد والجماعات: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة؛ وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:٨٥]". (١)

وبناء على ذلك فإن «الإنسان حين لا يهتدي بسنن الله، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله يميل به هواه؛ لأنه فقد الميزان، فصار سهلًا عليه أن يميل مع هواه حيثُ لا يخشى سنة ولا علمًا. فكيف يخشاها!.. وهو لم يشعر بقوانينها في الحياة، وأسلوب كشفها للباطل!.. فلذا نجد أن ضيق نظره، والمحدودية في إدراكه، يسهلان عليه اتباع الظنون وما تهواه نفسه، دون أن يخشى نكيرًا»(٢).

والفترة الحرجة التي تجتازها أمة الإسلام اليوم «تحتاج إلى رؤية واضحة لتاريخها يضيء لها معالم الطريق وآفاق الطموح.

ونحن أمة عريقة مرت بها على مسار تاريخها الطويل عصور ازدهار وانحطاط، سايرت يقظتها ووعيها، أو غفوتها وخمولها، وهي لا تستطيع أن تحمي وجودها وتتابع سيرها على مراقي تقدمها، ما لم تستقرئ ماضي خطواتها على درب الزمن، وتدرك سر قوتها وبقائها، وعوامل ضعفها وذرائع تخلفه»(٣).

---

(١) المقدمة، ص٣٥.

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص٢١٣.

(٣) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص٢٦١.

إن ما تعيشه الأمة المسلمة اليوم من تفكك وانحطاط وانهيار.. لا يرجع إلى النص القرآني بل إلى الواقع الاجتماعي الذي لم يستنر بالسنن الإلهية في التغيير، إضافة إلى ضعف علاقة المسلمين بالقرآن فهمًا وتدبرًا.

ولذلك لم يكن المسلمون على مستوى الأمر الإلهي (اقرأ) الذي ربط بين قراءة الكتاب المنظور (الكون) وقراءة الكتاب المسطور (القرآن)، فجعل القراءة باسم الله الذي خلق الإنسان من علق والذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، فلم يفد المسلمون لا من قراءة المسطور ولا من قراءة المنظور، فجهلوا السنن الإلهية التي تحكم الحياة، وتوقفوا عن السير في الأرض استنباطًا لسنن الاجتماع والاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين.

ولقد أدرك سلفنا الصالح مغزى السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم في استشراف المستقبل الزاهر بالنظر إلى أن هذه السنن ثابتة ومطردة لا تحابي أحدًا ولا تتخلف عن مسيرها إلا وفق علم الله تعالى وحكمه وحكمته ومشيئته، ولقد حضوا الأمة وحثوها على وجوب التفكر في الكتاب المنظور وتدبر الكتاب المسطور والنظر بعين البصيرة إلى الآيات المبثوثة هنا وهناك، للاستفادة منها، والاستنارة بنورها والسير على منهاجها لبناء مستقبل أمة الإسلام.

إن القرآن الكريم مليء بسنن العمران والاجتماع البشري الكفيلة بأن تحيي الأمة وتنشئ جيلاً صالحًا يقود الناس إلى صراط الله المستقيم، لكن المشكلة ليست في غياب المنهاج الذي يضبط ولكن في العقل الذي يدرك والقلب الذي يتحرك والهمة التي تعمل وتنفذ ما أسفر عنه تدبر سنن القرآن وآياته.

إن الجيل الخالد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما تحققت له السيادة والريادة والصدارة، وفتح البلاد وقاد العباد بأمر الله تعالى؛ إلا بتدبره القرآن الكريم واستيعابه له استيعابًا عمليًّا فكان يربط العلم النافع بالعمل الصالح، من هنا استطاعوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يبنوا عمرانًا بشريًّا إسلاميًّا وينشئوا جيلًا قرآنيًّا خالدًا، ينشر نور الإسلام في ربوع الأرض كلها.

وإن واقع الأمة المسلمة اليوم محزن لهجرانها للقرآن الكريم قراءةً وتدبرًا، حتى كاد ينطبق عليها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة:٧٨]،

أي لا يعلمون من الكتاب إلا التلاوة في المناسبات والقراءة على الأموات، فلا يعرفون معانيه وسننه ولا يتدبرون آياته.

وهكذا ركزت الدراسات القرآنية على جانب ضيق من علوم القرآن، وإن كانت له أهميته، لكن الاقتصار عليه وإغفال التدبر السنني والتفكر في الآيات المبثوثة في الكون، فصل غير مبرر فالله تعالى يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

وكان من نتائج ذلك الفصل أن غاب الفقه السنني، وتحول القرآن إلى وسيلة للتزيين، أو القراءة على الأموات، أو لعلاج الأمراض المستعصية.. وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه؟! وقد نتج عن ذلك اضطراب في منهج التعامل مع القرآن الكريم فهما وممارسة.

والقرآن الكريم ذكر لنا أحوال الأمم السابقة والمجتمعات الغابرة، لكن المسلمين يمرون على تلك الآيات القرآنية ولما يتدبروها، يحدثهم القرآن عن أمم اندثرت لأنها لم تأخذ بسنن البقاء، لكن المسلمين يسيرون على نفس سنن الزوال ولم يتعظوا بغيرهم من الأمم..

ومع ذلك فإن سنن الله سائرة بالجميع فقهوا ذلك أم جهلوا، ومن يسمع كلام الله ويدبره ويصدق كلمته ويستنير بحكمته تعالى يستطعْ وحده أن يساير سنن الله في خلقه على بصيرة من حتمية القدر، وهي غيب يؤمن به، على بصيرة أيضا بارتباط النتائج بالأسباب، وارتباط نصرة الله للعباد بنصرة العباد لله.

ولهذا فتدبر سنن الله في القرآن الكريم كفيلة بأن تكتشف مواطن الخلل وتحصر آلام الحاضر وهزائمه ونكساته وانكساراته في أبعادها النسبية.

لذلك فالتدبر السنني للقرآن الكريم والوقوف عند آياته -بهذه النظرة الثاقبة والعقلية الواعية-تستطيع الأمة أن تدرك سنن النصر والتمكين والاستمرار والاستقرار فتأخذ بها، وتدرك سنن الهزيمة والتدمير والانهيار والانمحاق فتبتعد عنها، فتقتفي أثر السلف الصالح في تدبر سنن الله، وتجتنب سبل المجرمين المفسدين، «كما هو مقرر -بأن التاريخ يعيد نفسه-

فمن عرف سنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى بخلاف من يجهلها، لأن من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله ﷻ فإنه يكون في حيرة وقلق لا يعلمه إلا الله!!»[1].

***

(١) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي، ١/٢٣.

المبحث الثاني
تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح

المطلب الأول
تدبر السنن الإلهية في عهد التنزيل والخلافة الراشدة

لقد كان رسول الله ﷺ أسوة وقدوة في تدبره للقرآن الكريم عامة ولسنن خاصة، وكانت كل تصرفاته تطبيقًا وامتثالًا للسنن القرآنية، كما كان ﷺ يرشد أصحابه إلى سنن الله في من سبقهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمنكرين ليبتعدوا عنها ويجتنبوها، ويبين أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على سكة السنن الإلهية.

فاستجاب الصحابة رضي الله عنهم لنبيهم ﷺ فتدبروا القرآن الكريم تدبرًا سننيًا فاكتشفوا سنن الله وتفاعلوا معها، وتعرفوها، وانتفعوا بها في حياتهم، فلم يتمنَّوا الأمنيات، ولم ينتظروا اختراق العادات، دون بذلِ الجهود والمساعي والأخذ بالسنن.

لقد كان رسول الله ﷺ، في كل أموره اليومية وفي كل أحواله في مكة والمدينة وفي الحرب والسلم، يتدبر سنن الله، ويتفقه فيها؛ من أجل تسخيرها في خدمة دين الله وعباد الله، وعند توقُّف الأسباب المادية يَمُدُّ الله نبيَّه بما يعطل أثر الأسباب المادية لنبيه الكريم ﷺ، بعد استفراغ الوُسع، وبذل الجهد.

وهذا أنموذج للتدبر السنن الإلهية في عهد النبي ﷺ: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال أقبل علينا رسول الله ﷺ. فقال: «**يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة**

المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم ؛ فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1]. وقد تناول هذا الحديث الشريف مجموعة من السنن الإلهية في الذنوب والمعاصي والعهود والحكم، وبإجمال تناول سنن الله في العقوبات.

وعن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ! فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «**لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ**»[2]. واشتمل الحديث على سنن الابتلاء والثبات على الحق، والتمكين لدين الله.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ -طبقا للتوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية- يتدبرون القرآن الكريم ويقفون عند سننه، ويقرأون آياته قراءة واعية تمتثل سنن القرآن وتعتبر من دروسه وعبره، وبتدبرهم السنني للقرآن الكريم تفقهوا في سننه وكانوا على معرفة واسعة بها، كيف لا؟ وهم عاشوا مع رسول الله ﷺ كل مراحل التأسي والبناء، والتربية والجهاد، والهجرة والنصرة، والتبليغ والتدافع، والدعوة وبناء الأمة، فتمثلوا منهاج رسول الله ﷺ في التدبر السنني، فانتفعوا بها في حياتهم وفتوحاتهم ودعوتهم، ولقد كان تدبرهم السنن الإلهية والتزامهم غرزها أول أسباب نجاحهم في حياتهم الفردية والاجتماعية، وما أكرمهم الله به من النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وتوحيد الكلمة وجمع الصف، وبناء القلوب، ونشر دين الله تعالى في الأرض.

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح٤٠٨٠، قال الألباني: حديث حسن.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ح٣٦٣٩.

والذي ميّز هذه المرحلة هو الاهتداء العملي والتأسي برسول الله ﷺ في التدبر السنني والتطبيق العملي لهذه السنن في واقع الحياة، على عكس المراحل المتأخرة التي اهتمت بالكتابة في فقه السنن.

وإلا فلو خالفوا السنن الإلهية وتنكبوها لما تحقق لهم كل تلك الانتصارات في ذلك الزمن القصير، حتى صاروا أنموذجًا خالدًا في تاريخ الإنسانية كلها.

ولذلك لما حل الطاعون بالشام رجع الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناس ولم يدخلها، فقَالَ له أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ! فَقَالَ عُمَرُ: «لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ! نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ»[1]. وهكذا كان الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيها في السنن، وأخذ بسنن الأسباب للحفاظ على الناس من إصابتهم بالطاعون، وهذه نتيجة تدبره السنن الإلهية.

ولما رأى الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أناسًا من أهل اليمن خرجوا مع ركب بدون رواحل وبدون زاد، فقال لهم: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ» [2]، وهذه نتيجة كذلك تدبره السنن الإلهية في الحياة، وأن اتخاذ الأسباب لا يعارض التوكل على الله تعالى.

ولما أمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالرحيل من زرود[3] إلى العراق استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه بالوصية الآتية: «أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح٥٣٩٧.
(٢) شعب الإيمان، للبيهقي، ٤٢٩/٢. مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا كتاب التوكل على الله، ص٥٠.
(٣) زرود: موضع بطريق مكة بعد الرمل.

القوة..»[١]. هذا جزء من الوصية العمرية لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تبين مدى تفقهه في السنن الإلهية وتدبره السنني للقرآن الكريم، وإدراكه حقيقة سنن الله في النصر والهزيمة والذنوب والمعاصي والطاعات..

ولما تولى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة جاء في خطبته التي استفتح بها عهده: «... لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء..» [٢]. مما ينم عن تدبره السنن الإلهية، حيث أدرك جملة من سنن الله في الجهاد والقعود والذنوب والموبقات..

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ[٣]: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: «نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ»، قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي - وَفِي حَائِطِهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ -، ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْحَائِطِ، فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ - وَهِيَ فِي الْحَائِطِ -، فَقَالَتْ: لَبَّيْكَ. فَقَالَ: اخْرُجِي، فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وجل[٤]. لقد تدبر أبو الدحداح هذه الآية الكريمة تدبرًا سننيًّا، فوقف عند سنة من سنن الله في الإنفاق والبر والإحسان، فسارع إلى فعل الخير والإنفاق استجابة لربه تعالى.

وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا

(١) انظر: الجزء الأول من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ٢٦٩/٥.

(٣) أبو الدحداح : ثَابِتُ بْنُ الدَّحْدَاحِ وَقِيلَ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ الْأَنْصَارِيُّ، توفي في حياة النبي ﷺ، وصلى عليه رسول الله ﷺ، يشبه أن يكون كنيته أبا الدحداح، فكناه بعضهم، ونسبه بعضهم، روى عَنهُ: ابن مَسْعُود، وَجَابِر بن سَمُرَة. انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤٧٣/١)، والاستيعاب لابن عبد البر (٢٠٣/١).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (٩٣٥/٣)، والبزار في مسنده (٤٠٢/٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٠١/٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٥/٥). وهو حديث صحيح.

﴿تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»** فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»(١).

والحاصل أن الدعوة إلى تدبر السنن الإلهية شغل من القرآن الكريم مساحة واسعة، وحظي باهتمام سيد الوجود ﷺ وصحابته الأكرمين من بعده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فما ذلك إلا لما له من أهمية بالغة، ومكانة عظيمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

لقد تدبر سلفنا الصالح القرآن الكريم، فاستوعبوا سننه ومقاصده، وامتثلوها في حياتهم، فتحققت لهم السيادة والريادة، ففتحوا البلدان وفتحوا مغاليق القلوب، ودانت لهم الجبابرة والأكاسرة، ونشروا الإسلام في ربوع الأرض كلها، وهكذا كان لتلك السنن الإلهية التي تدبروها أثر كبير في تشكيل العقلية الإسلامية التي استفادت من سنن الله في الكون والحياة، ثم سخرتها بما عاد عليها بالنفع والصدارة في الحياة.

لقد كان جيل القرون الخيرية الأولى يتعامل مع السنن بشكل علمي وتلقائي لأنهم تدبروا القرآن الكريم.

وقد سار السلف على خطى رسول الله ﷺ فأوصوا بالتدبر وضربوا لنا فيه أروع الأمثال.

***

(١) صحيح البخاري، في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، (١٤٦١٥) و(٢٣١٨) و(٢٧٦٩) و(٤٥٥٤).
صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، ح(٩٩٨).

المطلب الثاني
تدبر السنن الإلهية عند السلف من علماء المسلمين

إن جهود علماء الإسلام الأوائل لم تؤسس علمًا مستقلا يُعنى بالتدبر السنني على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى التي اجتهد فيها علماء الأمة المتقدمين؛ تقعيدًا وتنظيرًا وتطبيقًا وممارسة.. فقد كان حضور هذا العلم ضئيلًا في مؤلفات المتقدمين إلا في شذرات متناثرة هناك وهناك..

فقد كانت السنن الإلهية وتدبرها حاضرًا عند الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا البغدادي ، من علماء القرن الثالث الهجري (ت٢٨١هـ)، في كتابه النفيس (العقوبات) الذي أورد فيه جملة من أحاديث النبي ﷺ التي تتحدث عن سنن الله في هلاك الأمم وأنواع العقوبات التي حلت بها، ولا يقصد الإمام بالعقوبات، العقوبات الجنائية وإنما يقصد بها السنن الإلهية التي ذكرها القرآن الكريم في قيام الأمم والجماعات وسقوطها، والجزاء الإلهي العادل الذي ينزل بها في الحياة الدنيا جزاء وفاقًا على سلوكها.

وقد كان الإمام ابن أبي الدنيا فقيها في السنن الإلهية كما يتضح من كتابه هذا، حيث تعرض فيه لقضايا مختلفة كان جامعها الأساس كونها ذات تعلق بالجانب الحضاري للأمم والمجتمعات البشرية. ولكن أهمها هي تلك الروايات المتعلقة بأسباب قيام المجتمعات وزوالها، مثل ارتباط تغيير حال الأمة الحضاري بقدرتها على تغيير سلوكها المتمثل في إشاعة قيم العدالة الاجتماعية والمساواة ورعاية الحقوق والعهود، والكف عن الظلم والتصدي للظلمة بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أضف إليها ارتباط العمل بالجزاء في أكثر الأحوال.

أنموذج للروايات التي أوردها في كتابه العقوبات التي تعبر عن السنن الإلهية:

روى بسنده عن عبيد الله بن جرير عن أبيه ، عن النبي ﷺ قوله: **«ما من قوم يكون بين ظهرانيهم من يعمل معاصي الله فقدروا على أن ينهوه ولم ينهوه إلا عمّهم الله عزّ وجل منه بعقاب»**. وبتدبر الحديث الشريف نجده يتحدث عن سنن الله في الذنوب والمعاصي.

وروى بسنده عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا الناس أظهروا العلم وضيّعوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم**».

وبعد الإمام ابن أبي الدنيا ظهر الاهتمام بعلم السنن الإلهية وتدبر القرآن تدبرًا سننيًّا عند الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ-١٠٦٤م)، وذلك من خلال تأكيده القول بالطبائع وإثبات العلّية في الكون؛ أي أن الله تبارك وتعالى جعل لكل مخلوق في الكون طبيعة تتحكم بوجوده، ولا يمكن لهذه الطبيعة أن تتبدل أو تتغير أو تتحول، وجعل لكل حادث في الكون سببًا مرتبطًا به ارتباطًا حتميًّا، يقول ابن حزم: «إن للأشياء طبائع وماهية تقف عندها ولا تتجاوزها»(١).

ويضيف قائلا: «إن الباري -جل وعلا- خلق المعلولات على ما هي عليه من الإتقان والإحكام والثبات باضطراره للعلل التي وجبت المعلولات من أجلها»(٢).

ويضيف في موضع آخر: «وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سُفكت الدماء ظلما، ولا هُتكت الأستار بغير النمائم والكذب»(٣).

ومن السلف الصالح من علماء المسلمين الذين تدبروا القرآن الكريم تدبرًا سننيًا حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٥هـ-٥٠٥هـ)-رحمه الله- صاحب دائرة المعارف الفريدة والنفيسة (إحياء علوم الدين)، الذي قسم العلم إلى محمود ومذموم، واعتبر علم السنن وتدبرها من أجل العلوم وأنفعها، ومن القسم المحمود.

ولقد أكد الإمام الغزالي أهمية التدبر السنني الذي عبر عنه بأفعال الله وصفاته وسننه وحكمته.. واعتبره بحرًا زاخرًا يتطلب بذل الجهود والمساعي للبحث عن درره وجواهره ومكنونات أصدافه..

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٦/١.

(٢) الرد على الكندي الفيلسوف، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ٣٧٤/٤.

(٣) طوق الحمامة، ١٧٦/١.

وهناك أقف وقفات مع قبسات من درر فكر السلف الصالح من علماء المسلمين من القرون الماضية، يحضون الأمة على التدبر السنني للقرآن الكريم:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١هـ-٧٢٨هـ)-رحمه الله-: «فأُمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، ومن قبلها من الأمم، وذَكَر -الله تعالى- في غير موضع أن سُنته في ذلك سنةٌ مطردة، وعادةٌ مستمرة، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسُنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم»[١]. ومن يتصفح كتب ابن تيمية يجد أثر التدبر السنني في صفحاتها واضحًا.

ويقول: «وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد:٢٤] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف:٢] وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم! ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»اهـ.

وقال أيضا: «القرآن مَن تدبَّره تدبُّرًا تامًّا تبينَ له اشتمالُه على بيان الأحكام، وأنَّ فيه من العلم مالا يُدرِكه أكثرُ الناس، وأنَّه يُبيّن المشكلاتِ ويَفصِل النزاع بكمالِ دلالتِه وبيانِه إذا أُعطِيَ حقَّه، ولم تُحَرَّفْ كَلِمُهُ عن مواضعه»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى، ٤٢٥/٢٨.

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب (٩٢/١).

ويقول تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه»[1].

فهذه الفقرة تعبر عن التدبر السنني عند الإمام ابن القيم، حيث يعتبر تدبر سنن القرآن يعود على العبد بالمنافع الآجلة والعاجلة، ويضمن له صلاح دينه ودنياه، والنجاة في آخرته، ثم تحدث عن فوائد التدبر السنني الذي يطلع العبد على مجموعة من سنن الله في الخير والشر والدنيا والآخرة والسعادة والإيمان، وسنن قيام الأمم وانهيارها، وسنن النفس وما يجول في خلجاتها، ثم السنن الموصلة إلى الله تعالى، فالسنن التي تصد عن سبيله، ثم مقاصد أفعال الله جل وعلا..

ويضيف في موضع آخر قائلا: «فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في تَرَتُّب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ١/ ٤٥١.

ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال، ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلًا منه، وعجزًا وتفريطًا وإضاعة، فيكون توكله عجزًا وعجزه توكلًا، بل الفقيه كل الفقه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزن المخوف في الدنيا وما يضاده، فرب الدارين واحد وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضًا ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها، والله المستعان، لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه؛ أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا، ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن؛ فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة، ثم السنة فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا، وبعد ذلك فإذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته،طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر»[1].

وهذه الفقرة تنمُّ عن تدبر سنني للقرآن الكريم وفهم عميق لآياته، ونظرة شمولية لقوانينه، فانظر كيف تدبر الإمام ابن القيم القرآن الكريم تدبرًا سننيًّا أدرك من خلاله أنه غنيٌّ بالسنن الإلهية الكونية والأمرية، الكلية والجزئية، فضلا عن السنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية.. واعتبر الفقيه الكامل من تدبر هذه السنن وتفقه فيها، ثم جعل طريق تحقيق

(١) كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ص١٠-١١.

السعادة في التدبر السنني للوقوف عند سنن الله في الخير والشر، والأمم الغابرة وسنن الله في أيام الله والتاريخ وسننه في الآفاق، وسننه في أهل طاعته وسننه في أهل معصيته.

بل اعتبر تدبر القرآن الكريم مفتاح السعادة حياة القلب حيث يقول: «ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب»(١).

ويقول: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح (...) ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه»(٢).

إن الوسيلة الأولى لإصلاح النفس وتزكية القلب والوقاية من المشكلات وعلاجها هو التدبر السنني للقرآن الكريم، لكونه مشتملًا على جملة من سنن تغيير ما بالأنفس وإحياء القلوب والتدرج في مدارج السالكين إلى الله تعالى.. وعليه فمن أراد النجاح والفلاح والسير إلى بلاد الأفراح ما عليه إلا أن يسلك طريق تدبر القرآن الكريم تدبرًا سننيًّا سلوكيًّا عمليًّا..

أضف جهود أولئك الجلة من علماء الأمة في خدمة علم السنن الإلهية وتدبرهم فيها، الجهد النوعي المتميز الذي أبدع فيه مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ) -في مقدمته وتاريخه- في صورة علم العمران البشري والذي أسس به لعلم سنني عمراني حضاري فريد، كان نقطة تحول عظمى في التعامل مع علم السنن الإلهية، والاشتغال به بصورة منهجية موضوعية، انطلاقًا من التدبر السنني لآي القرآن الكريم..

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ص٤٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ١/١٨٧.

لقد بقي التدبر السنني تطويه الأَيام والعصور حتى العصر الحديث حيث بدأ بعض مفكري الإسلام يفكرون في هذا العلم وينبهون على أهميته ويحثون على الاهتمام به، ومن هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨م –١٨٩٧م) الذي انتحى في كتابة مقالات العروة الوثقى منحى يؤكد وقوفه على كثير من السنن الإلهية في الكون والحياة ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقي الأمم وسقوطها وقوتها وضعفها.. وذلك من خلال تدبره القرآن الكريم.

وتبعه في ذلك الشيخ محمد عبده (١٢٦٦هـ-١٣٢٣هـ) في العروة الوثقى وما نقل عنه الشيخ رضا في تفسير المنار، فهو منذ بدايات دعوته في الإصلاح يضع السنن الإلهية في ذهنه؛ إذ الإصلاح والتغيير بني على سنن إلهية ثابتة ومطَّردة وماضية لا تتخلف، ولم يقف عند هذا الحد فقط، بل حث على الاهتمام بتدبر القرآن الكريم للوقوف على السنن الإلهية وتدوينها والعناية بها، وتأصيل علم الاجتماع على قواعد إسلامية قرآنية متينة فيقول: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون لهم قوم يبينون لهم سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد عليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملًا بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله –تعالى- من أهم العلوم وأنفعها والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لاجتلائها ومعرفة حقيقتها»[1].

ويضيف قائلًا: «إن علم السنن أعظم الوسائل لكمال العلم بالله –تعالى- وصفاته ومن أقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه، وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء وإنما يرجى الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى

(١) تفسير المنار، ٤/١١٤.

الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعًا وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في نظرته وهداية كتابه.. وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على بصيرته في هذا العلم»[١].

ويضيف: «لقد جاء في القرآن الكريم الكثير من قواعد هذا العلم، فغفل أكثر المفسرين عنه ولم يهتد إلى فقه بعضه إلا القليل منهم؛ إذ لم يكن هذا العلم مدونًا في عهدهم فينبههم إلى ذلك»[٢].

ويضيف قائلًا: «إن لله في الأمم والأكوان سُننا لا تتبدل، إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبُه، أو اتصل بالمقربين سببُه، فمهما بحث الناظر وفكّر وكشف وقرر وأتى لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ولا تنفر منه»[٣].

ثم دعا إلى تدوين ما يسفر عنه التدبر السنني للقرآن الكريم فقال: «وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من ذكرها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها، ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا احتاجت معه إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد، وغيرهما، كانت محتاجة إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية»[٤].

ثم تبعه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢هـ-١٣٥٤هـ) في تفسيره (المنار) والذي كشف فيه عن الكثير من السنن الإلهية من خلال تدبر القرآن الكريم تدبرًا سننيًّا، ويؤكد هذا

---

(١) تفسير المنار، ١/٢٠-٢١.
(٢) تفسير المنار، رشيد رضا، ٤/٣٤.
(٣) الإسلام دين العلم والمدنية، محمد عبده، ص١٣٢.
(٤) تفسير المنار، ٤/١٣٩.

ما جاء في صفحة غلاف تفسير المنار: «هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول الذي يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده»(١).

ويقول: «أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علمًا، وأمرنا بالنظر والفكر والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالًا»(٢).

ولقد أولى الشيخ رشيد رضا اهتمامًا بالغًا للتدبر السنني لكونه يتوقف عليها مصير الأمم وبناء الحضارات ورقيها وازدهارها أو أفولها وانهيارها، يقول: «عُنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة، ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد(٣)، لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا، ولكننا تركناه، وسبق غيرنا إلى إتمامه واستثماره، فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران، وعزة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجود حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك، فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة، وأُهمل التاريخ، بل صار ممقوتًا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين»(٤).

ثم أكد أهمية التدبر السنني وآثار الأخذ به وإعماله في قوله: «إن العلم بسنن الله -تعالى- في عباده، لا يعلوه إلى العلم بالله-تعالى- وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله، أقول: أما العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الإنساني، أما العلم بسُننه في

---

(١) صفحة غلاف تفسير المنار.

(٢) تفسير المنار، ١/٢٣.

(٣) يقصد عهد مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن ابن خلدون الذي وُفق من خلال التدبر السنني للقرآن الكريم إلى استنباط سنن العمران والاجتماع البشري والتاريخ.

(٤) تفسير المنار، ١/٣١١.

خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني: أنه أعم الوسائل لكمال العلم الذي قبله، ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء»(١).

ثم يضع يده على الجرح ومناط البلاء الذي أصاب الأمة لما أعرضت عن التدبر السنني، فيقول: «ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن، وما ضاع ملكهم وعزُّهم إلا بجهلها الذي كان سببًا لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات»(٢).

ويضيف في موضع آخر يوجه اللوم للمسلمين بسبب تقصيرهم في التدبر السنني قائلًا: «وقد سبق حكماء المسلمين إلى بيان [بعض السنن الإلهية]، وبدأ ابن خلدون بجعله علمًا مدوَّنا يرتقي بالتدرج كغيره من العلوم والفنون، ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، وبنوا عليه ووسعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا منه كما كان يجب؛ لأنه كُتب في طور تدنّيهم وانحطاطهم، بل لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا في إقامة أمر مُلكهم وحضارتهم على ما أرشدهم إليه من القواعد وسنن الله فيمن قبلهم»(٣).

ثم يضيف مبينا آثار التدبر السنني وأهمية العناية به قائلًا : «لا جَرَم أن العلم بعوارض الأمم من السعادة والشقاء هو العلم بالإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم، وهذا أشرف العلوم، وأهم مباحثه ما يشرح أسباب أمراض الأمم وهلاكها، (...)، هذا العلم هو الذي ينير البصائر، ويصلح السرائر، ولكن المسلمين تجاوزوا بأنظارهم آيات الكتاب الكثيرة التي أرشدتهم إليه، والآيات الكونية في الآفاق وفي أنفسهم»(٤).

---

(١) تفسير المنار، ٧/٥٠٠.

(٢) تفسير المنار، ٩/٥٧٩.

(٣) تفسير المنار، ٨/١١١.

(٤) (ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا)، رشيد رضا، مقال منشور في مجلة المنار، ١(١٣١٦هـ-١٨٩٩م)، ص٦٠٩-٦١٠.

ثم إن سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع الشيخ رشيد رضا في التنبيه على أهمية التدبر السنني، ومن يطالع تفسيره «في ظلال القرآن» يقف على هذا التدبر في تفسيره لكثير من آيات القرآن الكريم، يقول رحمه الله: «والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول»(١).

ويزيد حضًّا للمسلمين على التدبر السنني: «أن المسلم ينبغي أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري والقدرة التي وراءه..»(٢).

والله تبارك وتعالى الحكيم ينبه الغافلين إلى تدبر آياته في صفحة الكون وتضاعيفه، في السماء والأرض، وفي الشمس والقمر، وفي الليل والنهار.. وفي مصارع القرون الأولى، وفي قصص الرسل فيهم.. وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود..(٣).

والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثَمَّ يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، من ثم يخشونه حقًّا ويتقونه حقًّا، ويعبدونه حقًّا.(٤).

---

(١) في ظلال القرآن، المجلد الأول، الجزء الرابع، ص٤٧٨.
(٢) نفس المرجع ، المجلد الثالث، الجزء الثامن، ص١١٨٨.
(٣) في ظلال القرآن، المجلد الثالث، الجزء الحادي عشر، ص١٧٥٩.
(٤) المرجع نفسه ، المجلد الخامس، الجزء الثاني والعشرون، ص٢٩٤٣.

ثم يبين حقيقة التلاوة النافعة للقرآن الكريم التي تفضي إلى التدبر الذي نتج عنه عمل وتطبيق وتنفيذ وسلوك فيقول: «وتلاوة كتاب الله تعني شيئًا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت، تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك..»[1].

أما المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي (١٣٢٣هـ-١٣٩٣هـ)، فقد أبدع في سنن النهضة، وفلسفة الحضارة، ولفت الأنظار إلى قضية السنن، في عديد من كتبه التي وضعها تحت عنوان: (مشكلات الحضارة)، ومنها: «شروط النهضة»، و«مشكلة الأفكار»، و«مشكلة الثقافة»، و«ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية»...

لكن الأمة المسلمة اليوم ابتعدت عن ذلك النبع الصافي والمعين المتدفق، فأصابها الويل والثبور، وابتليت بعظائم الأمور، فاحتل العدو أرضها، فعاث فيها فسادًا، كما احتل عقول أبنائها فأخرجها عن هدي الكتاب والسنة، بل جعل بعضها وبالًا على مجتمعاتها المسلمة حيث بدأ يرسل سمومه وسهامه الملوثة ونفاياته الفكرية عبرها.

إن ابتعاد فكر المسلمين اليوم عن التدبر السنني للقرآن الكريم، وتنزيل تلك السنن على واقع الناس وفق روح المقاصد الإسلامية جعل الأمة في مؤخرة الركب بل خارج المنافسة، وأفقدها الفاعلية والتأثير في العالم.

***

(١) المرجع السابق ، المجلد الخامس، الجزء الثاني والعشرون، ص٢٩٤٣.

خاتمة

يمكن إجمال أهم نتائج هذا البحث فيما يأتي:

- إن الأمة المسلمة اليوم في أمس الحاجة إلى تدبر السنن الإلهية أكثر من أي وقت مضى، لتكون بذلك أكثر تبصرًا بالأحداث التاريخية والمعاصرة، لاستشراف مستقبل زاهر وبناء مجتمع عمراني إسلامي أخوي صالح.

- إن تدبر السنن الإلهية ضرورة معرفية ومنهجية وعمرانية ووجودية بالنسبة للإنسان، لا يمكن أن يستغني عنه في أي حال من الأحوال، لارتباطه الوثيق بالخلاص الفردي والجماعي.

- إن التدبر السنني للقرآن الكريم يعطينا رؤية كلية تكاملية شاملة للكون والحياة، ويأخذنا في اتجاه جديد صحيح أكثر فعالية وأصالة وتأثيرًا، وينقلنا من حالة ترديد آيات لا ندرك معناها ولا مغزاها ولا كنهها إلى تدبر سنني واع يعقبه عمل وتطبيق، وينقلنا من النظرة الجزئية الضيقة للنص القرآني إلى النظرة الكلية المقاصدية السننية المنضبطة التي تكشف لنا ما وراء النص من سنن وأحكام وقوانين مطردة تنفعنا في مسيرتنا العمرانية الاستخلافية نحو المستقبل المنشود ونحو الحياة الخالدة عند رب العالمين.

- إنه واجب على الأمة المسلمة اليوم أن تقتدي وتتأسى بسلفها الصالح في تدبرهم للقرآن الكريم تدبرًا سننيًا يرفع همتها ويكشف عنها غمتها، ويعيد لها مجدها وعزتها، وينير لها حاضرها ويشرق شمس مستقبلها.

وعليه، فهل تستيقظ الأمة المسلمة اليوم من سباتها وتنهض من كبوتها وتعيد صلتها بالقرآن الكريم حفظًا وقراءة وتدبرًا وعملاً؟

وهل من همم ترنو للاهتمام بتدبر السنن الإلهية وعيًّا وتأليفًا وعلمًا وعملاً؟

وهل من بوادر طيبة لإدراج علم السنن الإلهية وتدبرها وفقهها ضمن المقررات التعليمية الجامعية في مختلف مراحلها الدراسية؟

ثم ألم يحن الوقت بعد لتكون من الأمة المسلمة طائفة من أهل العلم تتدبر القرآن الكريم تدبرًا سننيًّا ثم تقوم بتوعية المسلمين بما أسفر عنه هذا التدبر، حتى يعرفوا مواطن الخلل والزلل، فيعودوا إلى الصراط المستقيم، وإلى طريق العزة والكرامة والرفعة والتمكين.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

***

ثبت بالمصادر والمراجع

١- **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وبذيله كتاب المغني عن الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار للعراقي (ت٨٠٦هـ)، علق عليه: جمال محمود ومحمد سيد، دار الفجر للتراث، القاهرة-مصر، ط١/ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢- **أخلاق أهل القرآن**، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣: ١٤٢٤هـ.

٣- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (٤٦٣هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

٤- **الإسلام دين العلم والمدنية**، محمد عبده، تحقيق: عاطف العراقي، دار قباء-القاهرة، ١٩٩٨م.

٥- **الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده**، إعداد: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط/١٩٩٣م.

٦- **البداية والنهاية**،أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٧- **البيان في عد آي القرآن**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ.

٨- **التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين**، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (١)، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة-المغرب، ط١: أبريل ٢٠٠٣م.

٩- **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

١٠- **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١١- **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: محمد مرعشلي، ط٢، دار النفائس، بيروت، ١٤٢٨هـ.

١٢- **التفسير من سنن سعيد بن منصور**، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (٢٢٧هـ)، دراسة وتحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٣- **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١٤- **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، مصر، ط٤/ ١٣٧٤هـ.

١٥- **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وزميله، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

١٦- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٧- **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٧/ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٨- **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٩- **دروس من القرآن الكريم**، محمد عبده، كتاب الهلال، العدد ٩٦، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.

٢٠- **الرد على الكندي الفيلسوف**، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط/ ١٩٨٣م.

٢١- «**ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا**»، رشيد رضا، مقال منشور في مجلة المنار، ١(١٣١٦هـ-١٨٩٩م).

٢٢- **روح المعاني**، محمود بن عبد الله الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ). تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

٢٣- **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٢٤- **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١/ مارس ٢٠١٠م.

٢٥- **السنن التاريخية في القرآن الكريم**، محمد باقر الصدر، أعاد صياغة عباراته محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٩م.

٢٦- **السنن**، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٧- **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة المعارف الرياض، ط١/د، ت.

٢٨- **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) ، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٩- **الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء**، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي-بيروت، ط/١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٣٠- **صحيح البخاري**، الموسوم بـ: الجامع المسند الصحيح من المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجُعفي (ت٢٥٦هـ)، ضبط النص: محمود محمد نصار، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٤/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٣١- **صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي**، علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٢- **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، ط٢: ١٩٨٧م.

٣٣- **العروة الوثقى**، جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٣٤- **العقل والعلم في القرآن الكريم**، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة-القاهرة، ط: ١٤١٦هـ-١٩٨٦م.

٣٥- **العمل قدرة وإرادة**، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٢: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٣٦- **الفِصَل في الملل والأهواء والنحل**، أبو محمد علي ابن حزم، بيروت-دار المعرفة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣٧- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة-مصر.

٣٨- **القرآن وقضايا الإنسان**، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار العلم للملايين، ط٥: تشرين الأول ١٩٨٢م.

٣٩- **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (٣٨٦هـ)، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط٢: ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥م .

٤٠- **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٩م.

٤١- **كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية–بيروت.

٤٢- **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن العريفي ووعبد الله بن عبد الرحمن الهذيل وناصر بن يحيى الحنيني وفهد بن علي المساعد، تنسيق: محمد أجمل الإصلاحي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، نشر ضمن سلسلة: آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٨)، منشورات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد-مكة المكرمة، ط١: ١٤٢٤هـ.

٤٣- **كيف نفسر التاريخ**، مقال لمحمد بن صامل السلمي، المنشور بمجلة البيان، عدد ٥٠، شوال، ١٤١٢هـ، أبريل، ١٩٩٢م.

٤٤- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٤٥- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢: ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٤٦- **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**، أبو بكر أحمد بن عمرو العتكي المعروف بالبزار (٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرون، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط١.

٤٧- **«المسلمون وفقه السنن..»**، مقال لمحمد أمحزون، المنشور بمجلة المنار الجديد، السنة السادسة شعبان ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، العدد٢٤، القاهرة.

٤٨- **مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة.

٤٩- **معجم الألفاظ والأعلام القرآنية**، محمد إسماعيل إبراهيم، تقديم: عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي-القاهرة، ط٣: د،ت.

٥٠- **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٣٦٠هـ) ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة الزهراء ، الموصل ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ .

٥١- **معرفة الصحابة**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٥٢- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٣- **المقدمة**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط٢: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٥٤- **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، محمد محمد أمزيان، بيت الحكمة، وجدة-المغرب، ط٣: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٥٥- **موسوعة ألفاظ القرآن الكريم**، محمد عبد المنعم خفاجي، المؤسسة العربية الحديثة-القاهرة، ١٩٨٨م.

***

تعريف موجز بالمجموعة

تأسست (**مجموعة البحث في السنن الإلهية في القرآن والسنة والتاريخ**) بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين المغرب، بتاريخ: عام ١٤٣٤هـ٢٠١٣، بموافقة من السيد رئيس جامعة القرويين الشيخ العلامة والفقيه المحقق محمد الروكي، والسيد عميد كلية أصول الدين بتطوان العلامة محمد الفقير التمسماني الإدريسي.

رئيس المجموعة: الأستاذ الدكتور رشيد كهوس.

أهداف المجموعة

تتلخص الأهداف الكبرى للمجموعة فيما يلي:

- لفت الأنظار إلى أهمية فقه السُّنن الإلهية، وزيادة الوعي به؛ إذ لا سبيل إلى التخلص من الفوضى الفكرية والعلمية إلا بالالتزام بدين الله عز وجل وشريعته، وإدراك سنن الله تعالى في الكون والحياة؛ تمهيدًا لتسخيرها، والعمل بمقتضاها حتى يعود المسلمون من جديد خير أمة أُخرجت للناس.

- إعداد أبحاث ودراسات علمية وندوات فكرية في علم السنن الإلهية وأهميتها وكل ما يتعلق بها.

- فتح آفاق جديدة لطلبة العلوم الإسلامية والباحثين والدارسين لخوض غمار علم السنن الإلهية، وتشجيعهم على الاهتمام بهذا العلم الأصيل وإعطائه حقه من البحث والدراسة..

- وقبل كل هذا خدمة القرآن الكريم، والاستجابة لأمر الله تعالى الذي أمر بقراءة كتابه المنظور وتدبره وأخذ العبرة منه: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٧]. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء:٢٦].

مختصر السيرة الذاتية

د. رشيد كهوس

أستاذ السيرة النبوية وعلومها
بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين المغرب

- **الشهادات العلمية:**
  - الإجازة في الدراسات الإسلامية، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة).
  - دبلوم الدراسات العليا المعمقة (الماجستير)، في الفقه الإسلامي وأصوله، التخصص الدقيق: «فقه الأسرة والتحولات المعاصرة»، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول).
  - دكتوراه في تاريخ الإسلام وحضارته، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول) .
  - إجازات في رواية السنة النبوية.
- **الكتب المنشورة:**
  - تأملات سريعة في واقع الأمة الإسلامية.
  - الشراكة الزوجية بين العقل والعلم والشرع.
  - مقاصد ولاية الزواج في التشريع الإسلامي.
  - القوامة والحافظية رؤية شرعية ونظرة معاصرة.
  - القوامة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

- السنن الإلهية في السيرة النبوية.
- نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ.
- إتحاف العباد بحقيقة الجهاد.
- سنة الله في اليهود.
- مختصر تواريخ الأحداث المشهورة في السيرة النبوية.
- تنشئة الطفل المسلم.
- العبر في سيرة خير البشر ﷺ.
- مستقبل الأمة المسلمة في ضوء سنة الله في خلقه.
- حقوق العباد في الإسلام.
- محاضرات في سيرة الخلفاء الراشدين.
- في ظلال السيرة النبوية.
- العمران الإسلامي: دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

العضوية العلمية في الرابطات والجمعيات ومراكز البحث:

- عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- عضو مجمع الفقه الإسلامي بالهند.
- عضو شرفي برابطة أدباء الشام بلندن.
- عضو الهيئة العامة لفعالية محمد رسول الله ﷺ بالجمعية الدولية للعلوم والثقافة بالسويد.
- رئيس مجموعة البحث في: «السنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ» بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين المغرب.
- رئيس مركز آل عمران للدراسات والبحوث في فقه الأسرة والتغيرات المعاصرة بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويينالمغرب.
- محكم لدى مجمع الفقه الإسلامي بالهند.

- شارك في مؤتمرات وندوات وطنية ودولية في المغرب والهند وتركيا والأردن وتونس وقطر..
- له مشاركات تربوية وثقافية وأبحاث علمية منشورة في مجلات علمية ومتخصصة ومحكمة وطنية ودولية.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

من هدي القرآن ٥
مقدمة..... ٧
المبحث الأول: تدبر السنن الإلهية: ماهيته وأهميته وآثاره ١١
المطلب الأول: تدبر السنن الإلهية وأهميته..... ١١
المطلب الثاني: أثر تدبر السنن الإلهية في إحياء الأمة..... ٢٧
المبحث الثاني: تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح..... ٣٣
المطلب الأول: تدبر السنن الإلهية في عهد التنزيل والخلافة الراشدة ٣٣
المطلب الثاني: تدبر السنن الإلهية عند السلف من علماء المسلمين ٣٨
خاتمة ٥١
ثبت بالمصادر والمراجع..... ٥٣
تعريف موجز بالمجموعة ٥٩
أهداف المجموعة ٥٩
مختصر السيرة الذاتية..... ٦٠
فهرس الموضوعات ٦٣

***